

مركز دراسات الوحدة العربية



قضايا في الإعلام والتواصل (١)

الإنترنت والاستلاب التقاني

الدكتور عبد العالي معزوز





مركز دراسات الوحدة العربية

قضايا في الإعلام والتواصل (١)

الإنترنت والاستلاب التقاني

الدكتور عبد العالي معزوز

الإنترنت والاستلاب التقاني

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

معزوز، عبد العالي

الإنترنت والاستلاب التقاني/ عبد العالي معزوز.

٣٢ ص. ـ (أوراق عربية؛ ٨. قضايا في الإعلام والتواصل؛ ١)

ببليوغرافية: ص ٣٢.

ISBN 978-9953-82-430-7

١. الإنترنت ـ البلدان العربية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

004.678

العنوان بالإنكليزية

The Internet and Technological Predation

'Abd al-Ali Ma'zuz

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، أيلول/ سبتمبر ٢٠١١

المحتويات

أولاً: في مشكلة المصطلح: التقنية والتقانة

يوجد التباس في استعمال اشتقاقات عدة للدلالة إما على نفس الفحوى أو للدلالة على معانٍ مختلفة. ما الفرق بين التقنية والتكنولوجيا، أو ما يسمى في الشرق العربي بالتقانة؟

سنتطرّق إلى ثلاث مقاربات للتقنية: التقنية نسيان للوجود، التقنية إيديولوجيا، والتقنية نظام، للوصول في نهاية المطاف إلى الإنترنت كاستلاب.

١ ـ هيدجر: التقنية نسيان للوجود

التقنية سؤال فلسفي قبل أن تكون مجرد سؤال علمي، وحَظِيَت من ثم باهتمام الفلاسفة نظراً إلى ما تطرحه من تحدِّيات على الفكر الفلسفي المعاصر. ولا غرابة في أن يحظى سؤال التقنية باهتمام ليس هيدجر وحده بل ثلّة من الفلاسفة المعاصرين من أمثال هابرماس وإيلول وغيرهم.

و يُعتبر هيدجر رائداً في مساءلة التقنية، ولكنه يميِّز في الآن ذاته بين التقنية وماهية التقنية. ما يعني الفيلسوف أساساً هو مساءلة ماهية التقنية، لا التقنية، على اعتبار أن حصر السؤال في التقنية لا يعدو أن يكون منطلقه تصوراً أداتياً، وفي أحسن الأحوال تصوراً أنتربولوجياً وإنسياً للتقنية. بحسب التصور الأول التقنية نشاط أو فعالية أو وسيلة من أجل تحقيق غاية معيّنة، وعليه تمثِّل التقنية مجموع الآلات والأجهزة التي يُرمى من ورائها تحقيق غايات محددة وإنجاز أهداف مرسومة سلفاً.

وبمجرد معرفة تلك الأهداف والمرامي والغايات ينتهى السؤال. بينما السؤال الفلسفي حول التقنية لا ينتهي بمعرفة الأهداف التي ترمي إليها.

أما السؤال الإنسي أو الأنتربولوجي فليس أحسن حالاً من السؤال الأداتي. وبمجرد ما نتصور أن التقنية نشاط إنساني خفيت عنا الخلفية الفلسفية للسؤال، وحُجِبَت علينا الممكنات التي بوسعها أن تفتح لنا آفاق التفلسف. كيف لا والحال أن نسبة التقنية إلى فعالية الإنسان يُنهي حتى إمكان السؤال نفسه، وذلك بواسطة ادِّعاء أن الإنسان يحقق نفسه من خلال التقنية وأنه يتحكَّم فيها ويوجِّهها الوجهة التي يُريدها، ويرسم لها الحدود التي يريدها، بينما الملاحظ هو العكس تماماً: فكيف للإنسان أن يقود التقنية وهو المنقاد لها، وكيف يسوسها وهو المُسَاسُ لها، وأنّى له أن يسود عليها وهو المَسُود.

يعود قصور المقاربتين الأداتية والأنتربولوجيا إلى كونهما لا ينظران إلى التقنية سوى باعتبارها جهازاً أو مجموعاً من الأدوات والآلات المُسَخَّرة لإنجاز غايات ورسم أهداف، وبالتالي النظر إلى التقنية على أنها لا تتجاوز ما خُطِّطَ لها من دون أن تتعدّاه؛ بينما المطلوب هو مساءلة الجذور الميتافزيقية للتقنية، أو بتعبير آخر مساءلة ماهيتها الفلسفية. ويتطلَّب الأمر في هذا المستوى العميق من السؤال عدم التحيّز لا للتقنية ولا عليها، وعدم تقريظها وتعداد حسناتها وإيجابياتها من جهة، ولا التبرُّم منها والخوف منها وإحصاء مثالبها وسلبياتها، فالمسألة ليست بهذا التبسيط والاختزال. ولا ينبغي أن نتخيَّل أن أفضل موقف هو الحياد الأكسيولوجي (Neutralité axiologique)، فالحياد خدّاع يُوهم بالموضوعية، بينما الموضوعية هنا ذريعة فقط للتخلُّص من صرامة الفكر. وصرامة الفكر تقتضي ألاَّ نستسلم للمواقف السهلة التي تقتل السؤال الفلسفي في مهَدِه قبل أن يولد.

تقتضي صرامة الفكر وشجاعة الموقف الفلسفي اقتفاء أثر السؤال

والسير في دروبه الملتوية وصولاً إلى عمق المسألة وجوهر المشكلة: بصرف النظر عن كون التقنية مجرد جهاز آلي أو إنجاز بشري ومهارة إنسانية، هي في العمق إدراك للوجود ورؤية للعالم. بمعنى آخر لا تنفصل التقنية عن تصور للوجود بمجمله، وللعالم برمّته، فهي انجلاء للوجود في الأزمنة الحديثة لا سابق له عند اليونان ولا في العصور الوسطى. يمكن القول إذن إن ماهية التقنية هي خاصية وجوهر العصور الحديثة والأزمنة المعاصرة.

بأيّ معنى تُعتَبَر التقنية في نظر هيدجر انكشافاً للوجود؟

لقد خصَّص هيدجر الحديث في تقنية الطاقة سواء الكهربائية أو النووية وفي تقنية صناعة الرأي، وبيَّن من خلال الأمثلة التي تناولها كيف أن التقنية أساساً تخزين للطاقة وكيفية لصرفها عند الحاجة. قبل أن تكون التقنية نشاطاً إنسانياً أو أداة لتحقيق غايات معيَّنة، هي أولاً ماهية لها علاقة وطيدة بالوجود، وهي من ثم تعبير عن كيفية ظهور الوجود في الأزمنة الحديثة. التقنية استدعاء للوجود، للحضور، ومن ثم فهي استدعاء للطبيعة لكي تُخرِج ما بداخلها من طاقة. تستدعي التقنية الوجود لكي يُسلم ما بجوفه من طاقة وقوة؛ فهي بهذا المعنى تحريض للطبيعة، فما الأرض سوى قشرة لاستخلاص المعادن، وما الهواء إلاَّ لاستخراج الآزوت، وما التربة سوى لاستخراج المعادن، وما المعدن سوى لاستخلاص الأورانيوم، وما الأورانيوم سوى لصنع الطاقة النووية. التقنية في عمقها تحريض للطبيعة لكي تخرج طاقتها وتخزينها وإعادة توزيعها. تضع التقنية الحديثة الوجود رهن الإشارة وتجعل منه مخزوناً للطاقة. تُستَعمَل الطاقة هنا بالمعنى العام سواء كانت طاقة كهربائية أو قوة هوائية أو غيرها، كل هذا لا يهم. حتى الإنسان نفسه لا يسلم من هذا، وهو بدوره مدعوّ لكي يُسلِمَ ما بداخله من قوة وطاقة. وهذا يؤكِّد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإنسان نفسه لا يُعَدُّ استثناء من نمط انكشاف الوجود، وحتى لو أنه بواسطته تُحَقِّق التقنية مساعيها

وغاياتها، يقع بدوره في شراكِها: والمثال الساطع على ذلك هو أن الإنسان من منظور التقنية لا يُعتبر سوى مورد من الموارد، ويُتَرجم في علوم التسيير إلى موارد بشرية. يورد هيدجر مثالاً دالًّا فحارس الغابة مرتهن للغابة، وشجر الغابة مرتهن لصناعة الخشب، والخشب مُسَخَّر لصناعة مادة السليلوز، وهذه الأخيرة مُسَخَّرة لصناعة الورق، والورق مسخَّر لصناعة الجرائد والمجلات، وهذه الأخيرة مُسَخَّرة لصناعة الرأي العام. وعليه فماهية التقنية ثاوية خلف مظاهرها، إنها تحريض للطبيعة والإنسان معاً، تجعل كل شيء رهن الإشارة وتستدعيه للظهور في الوقت الملائم كلما دعت الضرورة إلى ذلك. إنها استخراج للطاقة وتخزين لها ووضعها رصيداً يتم استدعاؤه كلّما وجب ذلك.

٢ ـ هابرماس: التقنية إيديولوجية

يُخَصِّص هابرماس في مقاربته للعلم والتقنية كإيديولوجيا ـ وهو نفس عنوان أحد كتبه ـ الحديث عن نوعين أو شكلين من التقنية: تقنية وعلوم الاتصال، وتقنية وعلوم الحياة (info sphère, biosphère).

يطرح هابرماس مقاربة أخرى للتقنية، يمكن توصيفها بكونها مقاربة إيديولوجية واجتماعية. وبناء عليه فمقاربته تقترح تناول العلم والتقنية ضمن إطار أوسع ويتمثَّل في العقل الاستراتيجي والأداتي الذي يتَّسم من بين ما يتَّسم به استعمال كل الطرائق والمناهج والأدوات التي طوَّرها العقل في سبيل إخضاع الطبيعة والمجتمع والإنسان إلى غايات محددة أساسها الربح والمنفعة بصرف النظر عن القيم كيفما كان مصدرها. يمكن القول إن المنطق المستحكم في العقل الإستراتيجي هو تحقيق النفع والمردود والربح وإرساء الضبط والرقابة الاجتماعية وترسيخ الهيمنة السياسية. لقد صار كل شيء في المجتمعات الرأسمالية المتطوِّرة مختَزَلاً في التقنية بما هي تحكُّم وسيطرة وهيمنة. ابتكرت هذه المجتمعات شتى الطرق التي تُمكِّنها من أن تنظِّم نفسها ذاتياً بكيفية

تجعلها تعمل آلياً: يتكوَّن النظام الاجتماعي برمّته من مجموعة من الأنظمة الفرعية التي تعمل آلياً، فالنظام الاقتصادي الرأسمالي يعمل وفقَ وسائل تمكِّنه من إعادة التوازن الذاتي درءاً لكلّ الاختلالات التي يمكن أن تهدِّد توازنه، كما يعمل النظام الإداري والسياسي وفق بيروقراطية تحفظ له احتكار الشرعية، ومن ثم الاستحواذ على السلطة. كما تتسم الحياة السياسية في هذه المجتمعات الحديثة باستبداد العقل الاستراتيجي الذي يُعيد إنتاج وتوزيع مواقع القوة والسلطة عبر تنظيمات سياسية مكوّنة من برلمانات ومؤسسات وأجهزة حزبية تضفي صفة الشرعية على الدولة البيروقراطية.

من هنا يتبيَّن أن ما يهيمن على جميع الأنظمة السالفة الذكر هو العقل الإستراتيجي والمنطق التقني الذي يُعتَبَر العقل المنظِّم للمجتمعات الحديثة والمعاصرة. فالتقنية أوسع من أن تُحصَر في أدوات وأجهزة، إنها بالأحرى المنطق العام الذي يهيمن على الاقتصاد والإدارة والسياسة والسلطة والذي تُعتَبَرُ سِمَتُهُ المُهَيمِنَة النظر إلى كلّ شيء، لا على أساس أن له قيمته في ذاته بل على أساس أنه موجَّه نحو غاية: الإنتاج ومزيد من الإنتاج في الاقتصاد، الرقابة والضبط في المجتمع، مأسسة الهيمنة في السياسة.

ليست التقنية في مدلولها العام ـ سواء تقنية الاتصال أو تقنية الطب والوراثة ـ سوى الاتجاه العام المُسَتَبِدّ بالمجتمعات المعاصرة الذي يقيس كل شيء بالنسبة إلى ما يُدِرُّهُ من نفع، وبمقدار ما يحققه من غايات إستراتيجية يمكن تلخيصها في إرساء منطق الهيمنة، وهي بذلك لا تنفصل عن العقل الاستراتيجي والأداتي. ليست التقنية محايدة البتة ـ وهو هنا يلتقي مع هيدجر ـ ولا يمكن اختزالها في مجرَّد وسائل وأدوات. إذا كانت المجتمعات التقليدية ما قبل الحداثة تتسم بارتكازها على الحكايات والأساطير المؤسِّسة، والمجتمعات الحديثة بارتكازها على الإيديولوجيات الكبرى، فإن المجتمعات الرأسمالية المعاصرة تتسم بارتكازها على العلم والتقنية باعتبارهما إيديولوجيا.

نشأت من النسق الرأسمالي العام أنساق أو أنظمة فرعية: النسق الاقتصادي والمالي والصناعي (التقني والعلمي) الذي تتحكم فيه قوانين السوق والمال، والنسق البيروقراطي في الإدارة، والنسق السياسي المبني على احتكار السلطة. يمكن القول بأن العلم والتقنية تحوَّلا إلى إيديولوجية المجتمعات الرأسمالية المتطوِّرة، بعد انهيار شرعية الأساطير وشرعية الإيديولوجيات الكبرى، وهما بذلك يؤسِّسان لشرعية جديدة. إنهما من الآن فصاعداً يلعبان دوراً إيديولوجياً. ومجمل المعضلات التي تواجه المجتمعات المعاصرة تُقَدَّم لها حلول علمية ـ تقنية. وفيما يلي بعض الأمثلة: نشهد اليوم استقالة الدولة من كثير من وظائفها التقليدية كالرعاية الاجتماعية، والتربية على المواطنة، والتعليم العمومي، فانحسرت أدوارها في المهام التقنية والإدارية والبيروقراطية مثل الحفاظ على التوازنات الاقتصادية، وإرساء سياسات وقائية من دون المبالاة بالعدالة الاجتماعية وبالفضاء السياسي. والأدهى من هذا كله اختزال المشكلات العملية والسياسية في إجراءات تقنية مثل العدالة والإنصاف، والديمقراطية والمشاركة السياسية؟ فهذا النوع من الأسئلة لم يعد يحظى من جانب الدولة المعاصرة باهتمام يُذكَر، واستُعِيضَ عنها بطرح حلول تقنية. لا يهم إن تحققت العدالة الاجتماعية أم لم تتحقق، المهم هو الحفاظ على توازنات المجتمع. لا تهم المشاركة السياسية ـ التي تُعتَبر حجر الزاوية في الديمقراطية ـ بل كل ما يهمُّ هو إرساء آليات تقنية لحفظ توازنات آلية. ولم يعد ملحّاً تشكيل رأي عام سياسي بقدر ما صار المهمّ صناعة الرأي عبر وسائل الإعلام.

ما يكشف عنه هابرماس في كتابه **العلم والتقنية كإيديولوجيا** هو أن العلم والتقنية صارا يمثِّلان إيديولوجيا جديدة، وأصبحا يشكِّلان جهازاً مستقلاً يتطوَّر من تلقاء نفسه وبكيفية آلية، ومنه تستمدُّ مشروعية جديدة. لقد ساعد هذا الجهاز التقني العلمي الدولةَ المعاصرة على إفراغ السياسي من السياسة، وعلى تحويل الديمقراطية إلى تقنوقراطية، وعلى

إرساء سياسة لا سياسية، وبعبارة أخرى حلّت التقنية محل الإيديولوجيات التقليدية.

كل ما هو سياسي وله طابع عَمَليّ استُعيض عنه في ظل الدولة المعاصرة وفي الرأسمالية المتطوِّرة بالآليات التقنية، واختُزِل في مجرَّد مشكلات بيروقراطية وإدارية وفي إجراءات تقنية. لقد اعتُقِد بأن باستطاعة العلم والتقنية أن يقدِّما حلولاً لكلّ ما استشكل في الوجود المعاصر: استحالت الثقافة في المجتمعات الرأسمالية إلى صناعة للأوهام، واختُزلت في مجرد تنظيم لأوقات الفراغ، لقد تحوَّلت الثقافة إلى ترفيه وتسلية، والحال أن الثقافة سمو ورقي وتربية ذوق.

يقوم العلم والتقنية بطمس الصراع الطبقي وبإخفاء التفاوت الاجتماعي وبتحويل المعضلات الاجتماعية إلى مجرد مشكلات مالية واقتصادية وبيروقراطية. وبدل طرح مشكلة العدالة الاجتماعية يتم إرجاعها إلى مشكلة تنافس وإلى مسألة ربح وخسارة وإلى قضية حظ. ومن هذه الزاوية تُعتَبَر الفئات الفقيرة ضحية سوء حظها، ولا يُعتَبَرُ فقرها سوى نتيجة خلل اقتصادي لا حصيلة ظلم اجتماعي يلحقُها.

يمكن ـ حسب هابرماس ـ رصد بعض مظاهر تحكُّم إيديولوجيا العلم والتقنية في المجتمعات الرأسمالية المتطوِّرة، التي يمكن تقسيمها إلى قسم يهم تقنية المراقبة والاتصال، وتقنية التحكُّم في الحياة والوراثة، وهي كالآتي:

أ ـ ما فَتِئَت المجتمعات الرأسمالية المتطوِّرة تستخدم تقنيات جديدة في التحكُّم والمراقبة وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وفي استخدام وسائل وتقنيات مضادة للشغب. ألم تعد هذه المجتمعات مجتمعات تلصُّص وتجسُّس على مواطنيها بواسطة زرع كاميرات المراقبة في كل ركن وفي كل زاوية؟ إنها مجتمعات تُطَوِّر أنظمة المعلومات في سبيل ضبط أفرادها ومراقبتهم.

ب ـ ما انفكت هذه المجتمعات تُطوِّرُ وسائل تقنية طبية للتحكم في النظام الجيني وتوجيهه، وفي تعديله بما يتلاءم مع السياسات الليبرالية ومع مبدأ الفعَّالية..

كل هذه الوسائل والإجراءات التقنية تدلُّ على اتجاه عام في المجتمعات المعاصرة نحو اعتبار الإنسان مُصَمَّم على شكل آلة أو على شكل حاسوب، وبالتالي إمكان توجيهه بالكيفية التي يُراد توجيهه بها.

وفي هذا الإطار يمكن الكلام على حدوث تحوُّل كبير لم يُفطَن إليه: اندرج الاستلاب في إطار الإيديولوجية الماركسية في مستوى لا واعي وتلقائي. بمعنى آخر كان الاستلاب فيما مضى يحصُلُ بكيفية تلقائية وليس عن سبق إصرار، أما اليوم فصار الاستلاب يُصَمَّمُ قبلياً ويُخَطَّطُ له سلفاً بوسائل علمية وتقنية، إنه استلاب مُبَرمَج ومنظَّم مسبقاً.

وبهذا المعنى شاع في العصر الراهن الحديث عن نهاية الإيديولوجيات وبداية عصر التقنية، بحجة تبشير المجتمعات المعاصرة بالمعرفة للجميع ـ وهذا ما يُصطَلَح عليه بمجتمع المعرفة والعلم ـ لكن المُلاحظ هو انسياق العالم وراء تيار جارف يُسمَّى العولَمَة، حيث أصبح الادِّعاء بأنه قرية صغيرة أو قرية كونية مجرَّد دعوى إيديولوجية تُخفي من ورائها البَونَ الشاسعَ بين الفقراء والأغنياء، ليس بين الجنوب والشمال، بل حتى داخل المُجتمعات المسماة مجتمعات الوفرة.

إن ما لم يفطن إليه المبشِّرون بنهاية الإيديولوجيات هو أن العلم والتقنية يشكِّلان في العمق إيديولوجيات جديدة، رغم ما يظهران به من مظاهر الحياد والموضوعية. لقد حلَّ في المجتمعات الرأسمالية المتطوِّرة نزوع نحو الضبط والمراقبة بسبب هيمنة الوعي التقنوقراطي الذي يُشيع الوهم الإيديولوجي بأن بمُكنَة العلم والتقنية إيجاد حلول لكل مشكلات الإنسان المعاصر. يمكن اعتبار إيديولوجية العلم والتقنية هي إيديولوجية بديلة للإيديولوجيات البورجوازية والليبرالية الكبرى،

وتقوم مقامها، لأن هذه الأخيرة استنفدت طاقاتها التعبوية؛ فهي اليوم مصدر إضفاء المشروعية على الممارسات انطلاقاً من تكريس مبدأ الإنجاز والفعَّالية، ومن خلال تقديم وعود جديدة بضمان رغد العيش وتأمين الشغل واستقرار الدخل.

لقد أسفرت هيمنة إيديولوجية العلم والتقنية في المجتمعات المعاصرة - حسب هابرماس - عن نتائج أهمها المساهمة في ضمور وانكماش الفضاء السياسي والمجال العمومي، والتواطؤ في صرف أنظار الناس عن السياسة. يكفي النظر إلى ما تقوم به وسائل الإعلام من تشويه للنقاش السياسي ومن تحويل المناظرة السياسية إلى شبه فرجة لمعرفة إلى أيِّ مدى ساهمت تكنولوجيات الاتصال في تحويل الحملات السياسية إلى ما يشبه حملات دعائية وإشهارية. ويكفي النظر إلى تكنولوجية وصناعة الترفيه لمعرفة إلى أيِّ مدى ساهمت في استغلال أوقات الفراغ في المجتمعات المعاصرة بشكل لم يعد للإنسان متَّسع من الوقت للاهتمام بالعدالة الاجتماعية وبحُسن توزيع الثروات، وبالعمل السياسي الذي يهدف إلى التغيير. صار كل همّه أن يهرب من الأسئلة الكبرى ومن المشكلات التي يطرحها الوجود المعاصر. كما أشاعت وسائل الاتصال الحديثة ثقافة الترفيه التي امتد أثرها إلى الطبقات المحرومة في المجتمع.

نشرت إيديولوجية العلم والتقنية ما يمكن أن نسميه بالتصحُّر السياسي وجعلت من السياسة مجالاً مقفِراً لا يهتم به الإنسان سوى من باب الفضول، وطمست الدور الحيوي للسياسة في إرساء الديمقراطية وفي تقرير الإنسان لمصيره.

فضلاً عن ذلك ساهمت تكنولوجيات الاتصال في تنامي النزعة الفردية، وفي انحسار الناس في دائرتهم الخاصة، وفي لامبالاتهم بغيرهم، وانخفضت درجة حرارة الشعور الإنساني بالآخرين لديهم فصار همُّهم تحسين دخلهم وتطوير مسارهم المهني.

٣ ـ جاك إيلول: التقنية نظام

أ ـ في مفهوم التقنية

يُتيح مفهوم التقنية تفسير الظواهر التقنية، ولكنه مفهوم مركَّب. هل التقنية طريقة عمل أم أسلوب أو مجموع من الطرائق (Ensemble de procédés)؟ ومهما يكن من أمر فالتقنية المقصودة هنا هي التقنية ذات التطبيق الصناعي، ومن ثم فهي ذات صلة بالآلة التي تعتبر مُنتَجاً حديثاً. التقنية هي كل الطرائق الآلية ذات التطبيق الصناعي، فيما التقانة أو التكنولوجيا هي العلم الذي يدرس التقنيات. نظراً إلى كون المجتمعات الحديثة مركَّبة ومعقَّدة، وبسبب التقسيم الاجتماعي للعمل ابتُكِرَت تقنيات منها آلات تزيد من فعّالية الإنسان كتقنيات الحساب، ومنها الأدوات والأجهزة التي تعوِّضه وتحلُّ محلَّه. وما كان من تعدد التقنيات إلاَّ أن زادت من تكاثر الآلات. وقد ارتبط تطوُّر التقنيات بالثورات الصناعية الكبرى: الأولى ارتبطت بالطاقة الفحمية، والثانية بالطاقة الكهربائية، والثالثة بالطاقة النووية، والرابعة بالحاسوب. تبدو التقنية اليوم عبارة عن عمليات مستقلة بذاتها تكوِّن النظام التقني برمّته، التي يمكن تحديدها في التنظيم والحَوسَبَةِ وكشف المعلومة وتخزينها، والتي يُستعاض بها عن النشاط الإنساني وعن الفاعلية الإنسانية. لا تُختَزَل التقنية في مجرَّد استعمال الأدوات والأجهزة والآلات، ولكن تمتد لتشمل كل الوسائل والطرائق الأكثر فعالية، والتي تؤثر ليس في الإنتاج الصناعي ولا في الإنتاج الاقتصادي بل وفي التنظيم الاجتماعي وفي نمط عيش الإنسان أيضاً.

ب ـ في التقنية كنظام

التقنية في نظر جاك إيلول نظام أو نسق مترابط الأجزاء، ومن ثم فلهذا النظام منطق داخلي هو الذي ينتج في نهاية المطاف الظاهرة التقنية. ولا يتم التقدم التقني سوى من داخل النظام التقني برمّته. وحدها

النظرة الجامعة يمكنها أن تجعلنا قادرين على فهم الظواهر التقنية. يعمل النظام التقني ذاتياً وبكيفية آلية وشبه مستقلة مثلما هو الحال في دراسة ماكس فيبر للنظام البيروقراطي. ما يرمي إليه إيلول هو بيان أن للنظام ـ سواء تعلَّق الأمر بالنظام التقني أو بالنظام البيروقراطي ـ آليات ووظائف لا يستطيع الإنسان إلى تغييرها سبيلاً، ويظل هو نفسه مشروطاً لها. من الخطأ الاعتقاد بأن التقنية هي مجموع الأشياء التقنية، وأن الإنسان يملك زمام التقنية ويقودها إلى الوجهة التي يُريدها. لا يمكن فهم التقنية سوى كنظام أو كنسق. ليست التقنية سيارات وطائرات وأقمار صناعية، ولا حواسيب وأجهزة تلفزيون وهواتف وإنما هي المنطق الناظم لكل الآلات والأجهزة والأدوات ولكل الطرائق والأنظمة. النظام التقني يجعل من كل الظواهر التقنية كلاًّ مترابطاً: فلا معنى لسرعة الاتصالات في العالم التقني الذي نعيش فيه بدون ربطها بأنماط الشغل وبأشكال السكن وبنُظُمِ الحُكمِ والإدارة وبأنماط الإنتاج والتوزيع والاستهلاك.

فما هي خصائص هذا النظام التقني؟

أول هذه الخصائص التنظيم الذاتي (Autorégulation). ولنضرب مثالاً على ذلك بتطوُّر نظرية المعلومات، فلولا ترابط أجزاء النظام التقني لما أمكن تطوير نظام المعلومات الذي يمكِّن أجزاءه من التواصل فيما بينها. وها نحن اليوم نلاحظ كيف أن الصورة الرقمية تُستَعمَل في الاتصال مثلما تُستعمل في الطب. يتسم الاتجاه العام للنظام التقني بتطوُّر نظرية المعلومة. لم تعد المجتمعات الحديثة مستندة إلى مبدأ الإنتاج بقدر ما صارت قائمة على الإرسال، والأهم فيها ليس السلعة وإنما المعلومة.

ثاني هذه الخصائص أن النظام التقني مكوَّن من أنظمة فرعية: نظام الاتصال، نظام الإنتاج والاستهلاك، النظام الحضري والعمراني. . . إلخ.

ثالث هذه الخصائص المرونة، لأن التقدم التقني يتيح بدائل كثيرة وحلولاً عديدة، ولكن شريطة الامتثال للنظام التقني برمّته، فهو يترك

هوامش للحركة والفعل والتصرُّف، بصرف النظر عن الاعتبارات الأخلاقية.

رابعها، يُطوِّر النظام التقني طرقه الخاصة للتكيُّف والتعويض، وتُبتَكَر حلول وبدائل يمكن بواسطتها إيجاد حلول إنسانية لعالم لا إنساني.

ج ـ ما موقع الإنسان من العالَم التقني؟

ما موقع الإنسان من الآلة، هل توجد بينهما علاقة ضَمٍّ أو فَصلٍ؟ لا مكان في نظر جاك إيلول للنظرات المتفائلة بمستقبل الإنسان ـ الآلة ولا للنظرات المتشائمة، لسبب وجيه هو أنها نظرات سطحية، وأحياناً ساذجة لمشكلة التقنية. التقنية نظام قبل أن تكون مجموع أدوات وأجهزة وآلات.

يرى جاك إيلول أن التقنية هي المحيط الذي يسبح فيه الإنسان المعاصر، والماء الذي يستحمُّ فيه، هي الوسط الذي يترعرع فيه، فالتقنية هي ما يوجد سلفاً un déjà là، لا خيار له فيه ولا مهرب له منه، من أبسط الأزرار إلى أعقد الآلات. ثانياً العالم التقني هو ما يُهيَّأ إليه الإنسان ويُعَدُّ له وينشَّأ ويُربَّى عليه. في العالم التقني تُشبَع الرغبات وتُروى الحاجات بكيفية لا تنفصل عن ما تضعه التقنية أو العالم التقني رهن إشارته. بل يمكن القول بأن الحاجة تولد لأن تلبيتها تكون ممكنة تقنياً، ولا يجب أن نتصور أن الحاجات توجد قبل التقنية، بل التقنية هي التي تولِّد الرغبات وتجعلها إشباعها ممكناً: فالإشهار مثلاً يخلق الحاجة إلى الاستهلاك، والمواصلات تخلق الحاجة إلى التنقل، والطب يخلق شروط الصحة والتعافي، وصناعة الترفيه تخلق الحاجة إلى الاستمتاع.

لا توجد أية إمكانية خارج العالم التقني وخارج نظام التقنية المعاصر، بل لا عالم خارج العالم التقني، إنه الشرط الوجودي للإنسان المعاصر. يُطرَح سؤال أساسي بخصوص وضع الإنسان في العالم التقني

المعاصر: هل ثمة علاقة بين التقنية والحرية، وهل أمام الإنسان المعاصر مهرب من التقنية إلى الحرية؟

يعرض الفيلسوف إلى آراء أنصار التقنية والذين يرون فيها أفقاً لتحرُّر الإنسان، تحرره من الحاجة ومن كل أشكال الإكراه القديمة، مثل حبوب مَنع الحمل التي تمكِّنه من المتعة بدون أن يُضطرَّ إلى الإنجاب مثلاً. ولكن الاعتراض التالي لا يقل وجاهة عن أطروحة أدعياء وأنصار التقنية: هل الحرية هي الاختيار فحسب؟

يرى إيلول أن لا وجود للحرية في العالم التقني لأن الاختيار بين إمكانات متعددة لا يُعتبر حرية، لا أكون حراً بمجرَّد الاختيار بين آلاف الأطباق، بينما يمكن أن أكون حراً حتى ولَو لم أُخيَّر سوى في طبقٍ واحدٍ من الرُّز. إن منطقة اختياراتي محدَّدة بالعالم التقني: أما أنصار الحب المتحرر من قيود الزواج مثلاً أو الذين يعتبرون أنهم أحرار في العالم المعاصر من قيود الزواج والإنجاب والعائلة فهم واهمون، لأنهم لا يدركون أنهم في تَحَرُّرهم ذاك ينزلون بالشريك إلى مستوى الموضوع أو الشيء، ومن ثم فهم لا يختارون إلاَّ ما يُراد لهم اختياره من طرف النظام التقني الذي وضع بين أيديهم، بواسطة تقنيات الطب الحديث، العقاقير المانعة للحمل، وروَّج لهم بواسطة صناعة الإشهار العلاقات المتحرِّرة من أيّ التزام. إذن لا وجود لتطابق في الاختيارات التي يضعها النظام التقني بين يَدَيّ والحرية التي يمكن أن أخبرها حتى في غياب أيّ اختيار. ما يضعه أمامي العالم التقني من اختيار بين شيئين لا يعني البتة أن باستطاعتي ألاَّ أختار أيًّا منهما. أن أستهلك إما هذا المُنتَج أو ذاك لا يترك لي حرية أن أرفضهما معاً، فلا بدّ لي أن أستهلك في كلّ الأحوال. إذن لا أختار في النظام الاستهلاكي ألاَّ أستهلك شيئاً وإلاَّ كنتُ خارج النظام برمّته. وبناءً عليه، لا يمكن الحديث في المجتمعات التقنية المعاصرة عن الحرية بقدر ما يمكن الحديث عن الاستلاب. فالإنسان لا يملك أفعالاً بل فقط ردودَ أفعال، وللنظام التقني اليد الطولى فيما

يختاره: «ليست اختياراتنا واقعية قط بل هي تحتوي على ما يضعه المجتمع التقني بين أيدينا».

* * *

ما موقع الإنترنت بوصفه أوج تقنيات الاتصال من هذه التحليلات التي أتينا على ذكرها، أو من هذه المقاربات التي قمنا ببسطها؟ **هل هو استلاب أم تحرّر**؟ ما وضعية الإنسان المعاصر في عالم الاتصال وفي التكنولوجية الرقمية؟ تلك أهم الأسئلة التي نقوم باستقصاء الأجوبة عنها في العالم الافتراضي.

ثانياً: تقنية الاتصال: هل الإنترنت استلاب؟

طرحنا هذا السؤال في بداية الدراسة، وخصصنا القول في علاقة الإنسان بالتقنية. أما في هذا السياق فالأمر يهم علاقة الإنسان بالإنترنت: هل هي علاقة تحرُّر أم استلاب؟ قبل الإجابة عن السؤال يجمل بنا أن نقرِّب هذه التقنية الجديدة في الاتصال من فهم القارئ.

يُمثِّل الإنترنت أوجَ تقنية الاتصال أو التقنية الاتصال وقد بلغت مداها. يمكن القول إن التقدم التقني شمل مجالين أو عمَّ دائرتين على وجه التحديد: دائرة الاتصال (Info sphère) ودائرة الحياة (Biosphère)، مما أسفر عن تقدُّم في تقنيات الاتصال من جهة، وعن تقدُّم في تقنيات الطب والوراثة. فماذا تعني تقنية الإنترنت؟

الإنترنت شبكة إعلامية عالمية تَضُمُّ كلّ ما يدخل في مجال هندسة الشبكات الإعلامية، بل يمكن القول إن الإنترنت هو شبكة الشبكات، أي مجموع الشبكات التي تندرج في شبكة شاملة. إن غاية الإنترنت هو سهولة الولوج إلى المعلومة من طرف الجميع، وهذا ما يُفيد المبدأ الديمقراطي في اقتسام المعلومة وفي حق الوصول إليها في الزمن الواقعي وفي نفس الآن ومن طرف الجميع. يضم الإنترنت شبكات

اجتماعية مثل الفيس بوك Facebook، ومدوَّنات Blogs، ومواقع تبادل الرأي Forums والدردشة Chats، فضلاً عن البريد الإلكتروني، مما يمكن اعتباره إيذاناً بحدوث ثورة اجتماعية، ولكنها بخلاف الثورات التاريخية، ثورة هادئة وجذرية في الآن نفسه.

أسفرت تقنية الاتصال هذه، ونقصد بها الإنترنت، عن انفجار النظام الإعلامي الحديث من حيث إن الإنترنت حوَّل هذا النظام إلى نظام لا مركزي بدءاً من البثّ أو الإرسال إلى التلقي أو الاستقبال. وقد أتاحت هذه التقنية الرقمية إمكانات لا يشملها عدّ ولا يحيط بها حصر. فما أبعاد التقنية الرقمية في هذه الأداة المبتكرة للاتصال في العالم المعاصر؟

أولاً ماذا نعني بالتكنولوجية الرقمية؟ إنها تمثِّل طفرة تكنولوجية، وثورة في وسائل الاتصال، انتقلت على إثرها من التكنولوجية التماثلية (Analogique) إلى طور انفتحت فيه أبواب عالم جديد هو العالم الافتراضي. لقد تغيرت بفضلها أنظمة المعرفة وأنظمة الاتصال رأساً على عقب، فأمكن الاستعاضة عن الكتاب الورقي بالكتاب الرقمي، وعن المكتبة الورقية بالمكتبة الافتراضية، إلى حدٍّ يمكن الحديث عن رَقمَنَةِ الوجود الخاص والحميم للإنسان بواسطة الفيس بوك واليوتوب. إننا أمام ثورة لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية، سمحت بانتقال المعلومة بسرعة الضوء، وبإحداث شبكات للاتصال تتحدى وسائل الاتصال الرسمية.

ما هي الإمكانات التي أتاحها الإنترنت بفضل الثورة الرقمية؟
يمكن عدُّ بعض منها فيما يلي:

ـ التحرُّك أو الحركة في فضاء افتراضي بدون الحركة الفيزيائية، وهو ما يمكن تسميته بالترحال الافتراضي (Nomadisme virtuel). لا نجانب الصواب إذا قلنا إن جوهر الإنترنت هو العالم الافتراضي الذي يقع فيما وراء العالم الواقعي، وفيما وراء العالم الخيالي، ومن ثم لا يمكن وصفه بالخطأ ولا بالصواب. ليس الافتراضي مقابلاً للواقعي

أو نقيضاً له، وإنما هو بالأحرى ما يُنَاقض الفعليّ (l'actuel) بمعنى أن الفعلي متحقق، بينما الافتراضي هو ما لم يتحقق بعدُ وما لم يكشف بعدُ عن طاقاته المخزونة. نجد أنفسنا في العالم الافتراضي في حركة دائمة خارج المكان والزمان كما تواضعنا عليهما، ويعود الفضل إلى الإنترنت في دفع الزمان والمكان إلى حدودهما القصوى. يُفيد مصطلح الترحال (Déterritorialisation) الخروج من حدود الزمان والمكان فيما يشبه الحركة الدائمة العابرة للحدود والمخترقة للمسافات.

ـ إمكانية تحويل الحوامل إلى حوامل لا مادية، والانتقال من التقنية المُستَنِدَةِ إلى الحوامل المادية إلى التقنية الإلكترونية المُعتَمِدَة على الحوامل اللامادية. وهذا ما أسعف في الانتقال من الوثائق الورقية إلى الملفات المعلوماتية.

ـ سهولة الولوج إلى الشبكة، التي تُشبَّه أحياناً بشبكة العنكبوت، ومن ثم سرعة كل واحد في أن يربط اتصالاً بكل واحد. فثمة ما يشبه قابلية أو إمكانية الارتباط الدائم (Connectivité permanente) بالشبكات الإلكترونية التي يتيحها الإنترنت.

كيف يمكن تحويل الإنترنت إلى سؤال فلسفي؟

الإنترنت جزء من النظام العام للاتصال، أو لنقل هو تقنية متطوِّرة للاتصال جمعت كل المبتكرات التي سبقتها من تلفزيون وسينما وفيديو، فضلاً عن المواقع والشبكات المختلفة، في مُركَّب عجيب من هذه الوسائط الجديدة. فيمكننا أن نشاهد على شبكة الإنترنت البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية وأشرطة الفيديو في الآن والأوان الذي نريد، مثلما يمكننا استدراك ما فاتنا، وباستطاعتنا إيقاف عقارب الساعة واختيار كل ما نريد مشاهدته كما لو كنَّا نحيا في حاضر دائم. تحوَّل الإنترنت في عصرنا الحاضر إلى مفتاح سحري، يكفي الضغط على الزرِّ أو اختيار كلمات ورموز المواقع وها هو العالم بين أيدينا وطوعَ

بَنَانِنَا. لكن هل هذه القدرة الخارقة التي يمنحنا إياها الإنترنت تجعله فوق النقد؟ فيصير من المشروع أن نطرح السؤال التالي: هل الإنترنت أداة تحرُّر وتحقيق الذات أم أنه أداة استعباد واستلاب؟

أ ـ الإنترنت وسؤال الاستلاب

إن أهم ما في إشكالية الإنترنت ليس الأجوبة وإنما الأسئلة، ليس وجهات النظر وإنما الأدلة والحجج على وجهات النظر. وحتى يتحلَّى البحث بالإنصاف والموضوعية لزم عرض كل زوايا النظر بدءاً بتلك التي تُدين تقنية الاتصال، وخاصة العالم الرقمي والافتراضي المُمَيِّز للإنترنت، إلى تلك التي تَمتَدِحُهُ.

إذا بدأنا بالنظرية الماركسية وجدنا أنها تُدين العالم التقني عموماً، ولا ترى فيه سوى استلاب للإنسان.

فما يعني أولاً مفهوم الاستلاب؟

يفيد مفهوم الاستلاب في التحليل الماركسي اغتراب الإنسان عن ماهيته الإنسانية بسبب انفصاله عَمَّا ينتجه بقوة عمله، ويصير تابعاً للآلات التي يخترعها بدل أن يجد فيها تحققه الذاتي. ويتجلّى استلابه الأساسي في تبعيته للآلات التي يخترعها ومنها نُظُمُ الإعلام والمعلومات، والتي يأتي الإنترنت على رأسها. إن الاستلاب مفهوم ابتكره ماركس للدلالة على ظاهرة الاغتراب التي يعيشها الإنسان المعاصر تجاه عالم الآلة. واكتشف جورج لوكاش مفهوماً آخر للدلالة على حالة الغربة والاغتراب هذه وهو مفهوم التشيؤ (Réification, chosification) ويدلُّ على الوضعية التي يجد الإنسان نفسه فيها وقد فقدت السلع والأشياء التي ينتجها قيمتها الاستعمالية لتكتسي قيمة تبادلية وتجارية محضة. وهنا أستعير جملة من كتاب الأستاذ محمد سبيلا وردت في كتابه **مدارات الحداثة** (ص ٢١) يقول فيها «و في وضع كهذا يصبح للآلات القيمة السابقة للبشر، بينما

تنحط القيمة البشرية إلى مجرد قيمة الآلات». تقتضي الدراسة النقدية للإنترنت إدراجه في إطار انتقال النظام الرأسمالي من الطَّور الصناعي إلى ما بعد الصناعي، أي في إطار مجتمعات الاتصال والإعلام. صار الإعلام والاتصال قوة جبّارة تكرِّس استلاب الإنسان واغترابه، بَلْهَ، وتشيّؤه.

وفي نفس سياق النظرية الماركسية يُدرِجُ دومينيك ولتن Dominique Wolton مفهوم العزلة التفاعلية. وأول علامة على قوة نظام شبكة الإنترنت أن يجد الفرد نفسه لا حول ولا قوة أمام جبروتها، يجد نفسه منساقاً إليها وتابعاً لها. وكلما زاد انخراطه في شبكة الإنترنت وكثرت روابطه الإلكترونية والافتراضية قلَّت علاقاته الإنسانية وخبت جذوتها العاطفية. فماذا عن مفهوم العزلة في الإنترنت أو ما يصطلح عليه بالعزلة التفاعلية؟

يكرِّس الإنترنت عزلة رُوَّاده ومستعمليه. يستعمل الكاتب دومينيك ولتن في كتابه **الإنترنت، وماذا بعد؟ نظريات نقدية للوسائط الجديدة** عبارة تنطوي على مفارقة هي نفسها المفارقة التي يكرِّسها الإنترنت: إنها عبارةُ «العزلة التفاعلية»، وتفيد شيئين متناقضين، فهي من جهة تفاعل interactivité، ومن جهة أخرى لا يفيد هذا التفاعل الذي يمنحه الإنترنت في إخراج روَّاده من عزلتهم. إن الإنترنت ولوج إلى العزلة التفاعلية (Solitude interactive)، حيث أصبح الأفراد في مجتمعات الاتصال متحررين من كثير من أشكال الإكراه، ولكنهم بالمقابل صاروا مُحاصرين في زواياهم المنعزلة وفقدوا حس الاتصال مع الآخرين، وتعترضهم صعوبات في عقد علائق اجتماعية. ويمكن اعتبار الهَوَس شبه المرضي بالاتصال في المجتمعات الحديثة تعويضاً عن العزلة المهولَة التي يعيشونها. كلما زادت العزلة زادت الحاجة إلى الارتباط بالخط الهاتفي أو بالشبكة العنكبوتية. تُفصح الفاقة العاطفية والعَوَز العلائقي والاجتماعي عن فراغ مهول لا يملؤه الاتصال، فالاتصال لا يروي ظمأ التواصل. فضلاً عن أن العزلة صنعت مجتمعات

الاتصال المعاصرة من الأفراد ذرات معزولة، وساهمت في تفكيك العلاقات الاجتماعية، ولا أدلَّ على ذلك من أن آلات الاتصال والإعلام الحديثة جعلت من كل فرد مونادا بلا نوافذ. إن الثمن الباهظ للحرية الليبرالية هو العزلة القاتلة، إن عالماً بلا إكراه وبلا حدود هو بحد ذاته عالم مليء بالإكراهات والقيود، وفي مقدمتها أن الفرد يجد نفسه محاصراً في عزلة قاتلة.

ولكن، وفي مقابل فكرة الاستلاب الماركسية، وضد فكرة العزلة التفاعلية التي تُعتَبَر امتداداً لنظرية الاستلاب التقني، ثمة نظريات أخرى مؤيِّدة لنظريات الاتصال الحديثة لا ترى في الإنترنت مجرَّد آلة سالبة لحرية الإنسان، وإنما ترى فيه مناسبة للتواصل الاجتماعي وفرصة لِعَقدِ عُرى ونَسج علائق سواء على شكل صداقات أو اهتمامات، أو هواجس اجتماعَية أو بيئية أو سياسية، أو قواسم مشتركة مهنية أو استهلاكية. ولم تزد المواقعُ والشبكاتُ الاجتماعية هذه الحاجةَ إلى الآخرين، والرغبةَ في مشاطرةِ آرائهم ومواقفهم سوى قوَّة، وربما النجاح المنقطع النظير الذي لاقاه «الفيسبوك» ليس سوى حجة إضافية على ما نقول. ساهم الإنترنت في تكوين رأي عام عالمي، وإقليمي، بَلْهَ وحتّى وطني، ويمكن القول إنه وفَّر فضاءً وساحة عمومية افتراضية (Agora virtuelle) من أجل تداول الرأي والمناقشة.

ب ـ الإنترنت بين الحرية والرقابة

يحمل الإنترنت في أحشائه جملة من المفارقات: فهو يلبِّي حاجة الفرد المعاصر إلى الخصوصية، ويكرِّس حقه في حياته الخاصة، ويتيح له إنشاء مُدَوَّنَتِهِ وأَرشَفَة ألبوم صوره واختيار لائحة أصدقائه، كما أنه يسعفه في تركيب ملامح شخصيته والتعريف بنفسه للآخرين، ويساعده على إحداث مواقعه الإلكترونية الخاصة، وعلى عرض أعماله وأنشطته وعلى تكوين آرائه ومناقشتها. ومن أهم ما أسفر عنه الإنترنت هو أنه يتيح إلى

مستعمله توسيع شبكاته الاجتماعية وتمديد دائرة معارفه بما يضمن الإدلاء بدَلوِه في أحداث الساعة. صار الإنترنت الأداة الإلكترونية التي لا غنى عنها لتحقيق الفرد لحريته الخاصة من دون عوائق، ومن دون رقابة. ولكن وفي المقابل ـ وهذه من مفارقات الإنترنت التي لا يملك الفرد عنها فكاكاً ـ يُكَبِّلُهُ بقيود أخرى تتمثَّلُ في إفشاء حياته الخاصة على صفحات الويب (Le Web)، الشيء الذي يجعلها عُرضَة لِعَبَث العابثين؛ ويصِحُّ آنئذ التساؤل أين تنتهي حرية الفرد، وأين تبدأ الرقابة؟

بالرغم من انفلات الإنترنت من أجهزة الرقابة التقليدية التي كانت تمارسها الدولة على انتشار المعلومة غير أنه يفرض رقابة من نوع جديد، أو بعبارة أخرى بدأت تتشكَّل فيه ملامح رقابة جديدة. خُذ قانون السرية (Confidentialité) الذي تلتزم به أو تدَّعي أغلب المواقع الإلكترونية من شبكات اجتماعية وغيرها أنها تلتزم به: إن لِشَرطِ السِّرِّية حدوداً، أوَّلُها أنه لا يحول دون استغلال المعلومات الشخصية في استطلاعات الرأي وفي سَبرِ أذواق الجمهور وتوظيفها لأغراض الدعاية والإشهار.

تُطرَحُ معضلة أخرى لا تقل صعوبة واستعصاء على الحَلِّ من الأولى، وهي أن الحرية الفردية التي يتيحها الإنترنت، من خلال سهولة التَّنقُّل بين المواقع ويُسر الترحال بين الشبكات، تصطدم بالحواجز الرقابية والهواجس الأمنية: فلا يكاد يخلو موقع ولا شبكة من أقفال وشفرات تمنع ارتيادها من طرف مستعملي الإنترنت خوفاً من القرصنة، إلى حدّ أصبحنا نتحدَّث اليوم عن الإرهاب المعلوماتي. ألا تضع هذه المخاوف حرية ارتياد المواقع وسهولة الولوج إلى المعلومة موضع تساؤل؟

ج ـ الإنترنت وإيديولوجية الاتصال: العولمة نموذجاً

لا مراء في أن الإنترنت يمثِّل وحدَه مغامرة تكنولوجية هائلة، لكنه في نفس الوقت يحمل في طياته عناصر من إيديولوجيا العَولَمَة، وهي عبارة عن أكليشيهات واسعة الانتشار، مثل «القرية الكونية»

و«مجـتـمـع الاتـصـال الـشـامـل» (Village global) (Société globale de l'information) و«مجتمع المعرفة» (Société de la Connaissance)، والحال أن هذه المفردات تخفي من ورائها دلالات جيو ـ سياسية. فإذا نظرنا عن قرب إلى عبارة «القرية الكونية» نجد أنها تخدم فكرة هي بمثابة حجر الزاوية في إيديولوجية العولمة، وتتمثَّل في تحويل العالم إلى «سوق كونية». ألا تكشف الفجوة الرقمية بين الشمال والجنوب عن بطلان الادعاء القائل بأن العالم استحال إلى قرية كونية. إننا بالأحرى نعيش في مجتمعات التسويق الكوني الشامل، وليس في مجتمعات الاتصال الشامل كما تدَّعي إيديولوجية الاتصال. ما نلاحظه بالفعل هو أن الإنترنت أداة فعّالة في الاتصال الكوني الشامل، ولكنه في الآن نفسه وسيلة لتوسيع وانتشار منطق السوق والتسويق، فكل شيء صالح للترويج على المستوى العالمي من مسحوق الغسيل إلى صناعة النجوم.

لا يمكن أن نفهم رهانات الإنترنت سوى على ضوء أنساق اقتصادية ومالية، بَلْهَ، وثقافية. يتساوق ازدهار نظام الاتصال، والذي عرف أوَجَه ومَدَاه مع ابتكار نظام الويب والنت le Net, le Web، مع انبثاق نظام عالمي جديد. ويمكننا إبداء ملاحظة أساسية وهي أن مَا مِن ابتكار تقني أو تكنولوجي يوجد بمعزل عن التطور الاجتماعي والاقتصادي والمالي وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة. إن مَيسَمَ النظام العالمي الجديد أو الرأسمالية في طَورها ما بعد الصناعي هو التوسع والتمدُّد، وإيديولوجيته النظام التقني، أما الاتصال والإعلام والإنترنت فَمِن دعائم هذه الإيديولوجية. وبناء عليه لا ينفصل فهم الانفجار التكنولوجي في مجال وسائل الاتصال عن سياق العالم المُعَولَم، كما لا يمكن فهم التبادل الحر من دون تصوّر نظام تقني يبتكر آلات ووسائل الاتصال من أجل ضمان رواج المعلومات وتبادلها. إن الإنترنت هو مُنتَج لعالم تنمحي فيه الحدود وتزول الحواجز وتنكمش المسافات، ويمثِّل التحقُّق التقني لإيديولوجيات العولمة التي من مفرداتها العبارات

التالية: العالم قرية كونية، عالم بلا حدود. تُخفي هذه العبارات أو هذه الشعارات الإيديولوجية واقعاً رأسمالياً جديداً، أو صيغة جديدة لرأسمالية تطمح إلى أن تبني سوقاً كونية أو كوناً هو عبارة عن سوق.

يرى ريجيس دو بري أننا نحيا في عصر العولمة الإعلامية أو في عصر الاتصال المُعَولَم (Information globalisée) ويرى أن العولمة هي الوهم الكبير الذي يقنّع الفوارق بين الأغنياء والفقراء.

د ـ الإنترنت وسؤال الديمقراطية

لا توجد بين الحاجة إلى الاتصال من جهة، وإرساء فضاء عمومي لتداول الرأي وتشكيل إرادة عامة من جهة أخرى ـ وهي تمثل ركائزَ الديمقراطية ـ سوى مسافة قصيرة. وبناء عليه لا يمكن نُكرَان حقيقة مؤدَّاها أن الإنترنت خصوصاً، وآلات الاتصال عموماً ساهمت في بلورة نزعة المساواة في المجتمعات المعاصرة، وفي بروز ما يمكن تسميته «الديمقراطية التفاعلية» (Démocratie interactive)، وهي خلاصة نظرية توفلر (Toffler) التي يؤكد فيها بعض مظاهرها وتجلّياتها مثل الاعتماد على الطرق السيارة للمعلومات من أجل إشاعة الحِسّ السياسي بين جماهير ورواد الإنترنت. ويتيح الإنترنت بالفعل إرساء دعائم ديمقراطية من نوع جديد، هي الديمقراطية التشاركية (Démocratie participative) التي لا يُستثنى منها أحد مَهمَا ابتعد.

رغم أن دومينيك ولتن متشكك في الإدعاء القائل بأن الإنترنت أداة لتعزيز الديمقراطية، لا يمكن مجاراة آرائه من طرف دعاة الديمقراطية الإلكترونية التي يتيحها «النت» Net أو الشبكة.و يمكن عرض بعض ملامح هذا الشكل الجديد من الديمقراطية الذي يبشّر به أنصار الإنترنت:

ـ ساهم الإنترنت في رسم ملامح ديمقراطية جديدة ترتكز على المشاركة الفعَّالة لكل روَّاده في الحياة السياسية، ولهذا السبب سُمِّي هذا

النوع من الديمقراطية بديمقراطية المُشَارَكَةِ تمييزاً لها من الديمقراطية التمثيلية (Démocratie représentative) . إن الفرق بينهما هو أن الأولى مباشِرَة، والثانية تفويضية يُفَوِّضُ بمقتضاها المنتخِبُون أمرهم إلى من يمثِّلُهم وينوب عنهم.

ـ فضلاً عن ذلك، ساهم الإنترنت في تقريب الهوّة بين الحاكمين والمحكومين، بين الناخِبين والمنتخَبين، بين الطبقات السياسية وعموم الجمهور السياسي من خلال إحداث مواقع لتبادل الرأي ولإرساء المناقشة السياسية العمومية. أخرج الإنترنت السياسة من الكواليس ومن دائرة الظلمة إلى دائرة النور، وحوَّل الشأن السياسي من الضبابية إلى الشفافية. لم يعد ممكناً، مع ظهور المواقع الإلكترونية والشبكات الافتراضية والمنتديات العامة، الاستمرار في احتكار السلطة وفي تَمركُزِهَا في يد الأنظمة السياسية الاستبدادية. أظهر «النت» حاجة السلطة السياسية إلى الشفافية وكرَّس حق كل مواطن في معرفة كل ما يدور في الدهاليز المعتمة للسياسة.

ـ إن الإنترنت يضمن أكبر قدر من المشاركة بفضل إتاحة الانتخاب على الشبكة.

ـ إنه يرسي ما أصبح يُصطَلَح عليه بديمقراطية المعلومة، ويسمح بالتزوُّد بالمعلومات من مصادرها.

ـ إنه يرسي دعائم ما يمكن أن نسميه بالديمقراطية الافتراضية المُتَدَاوَلَة في العالم الرقمي، التي تُعَدُّ صياغة جديدة للديمقراطية، تجعلها هذه الأخيرة غير مرتبطة بمواعيد انتخابية وإنما دائمة ومستمرة، تساهم في بناء مواطنة مسؤولة ومتنوِّرة ومشارِكَة، لا يقف دورها في مجرَّد تنظيم الحملات الانتخابية.

ـ بالتوازي مع الزخم الديمقراطي الذي يساهم الإنترنت في إنشائه، يعطي للسياسة أشكالاً نضالية جديدة، فالمدونات والشبكات

السياسية على «النت» توفِّر أشكالاً سياسية نضالية جديدة تتعدَّى المؤسسات الحزبية التقليدية وتتجاوزها، مثلما هو حادث في كثير من المجتمعات العربية اليوم حيث أتبث «الفيس بوك» جدارته في تنظيم الاحتجاجات والتظاهرات مما اعتُبِرَ تحدِّياً للأجهزة الأمنية القمعية.

ولكن من المشروع أن نتساءل عن مصير الديمقراطية بما هي وعي سياسي وإرادة سياسية في ظل وسائل الاتصال وأهمها الإنترنت. ومهما يكن من أمر تقريظ الديمقراطية الإلكترونية التي يتيحها الإنترنت لا ينبغي أن يحجب عنا مسألة كَون الديمقراطية في الفضاء الافتراضي هي مسألة إشكالية، فلننظر إلى مثالب هذا النوع من الديمقراطية، الذي يمكن تسميته بالديمقراطية الرقمية.

إن المتشككين في التقنية عموماً، وفي آلات الاتصال المعاصرة لا ينظرون بعين الرضا إلى الانعكاسات السلبية للإنترنت على الديمقراطية بحجة أنه يحوِّل الديمقراطية إلى شَعبَوِيَّة سياسية جديدة (Un nouveau populisme) وإلى خطاب سياسي تبسيطي يتودَّد إلى الغرائز وإلى الأهواء، ولا يُخاطِبُ العقل. يتخوَّف المُرتابون في الإنترنت من نشر ثقافة سياسية تبسيطية من شأنها أن تفضي بالديمقراطية إلى شكل من أشكال الغوغائية التي، بَدَلَ التَّدرُّج في تكوين ثقافة سياسية لمواطنة جديدة ملائمة للعالم الافتراضي الجديد، تفضي إلى رَمي الناس في أحضان الأحكام المسبَّقة والشعارات الفضفاضة التي ليس بمقدورها إحداث تغيير عميق في العقليات.

خاتمة

ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن نَخلُصَ إليها فيما يتعلَّق بالإنترنت ؟ وما العلاقة التي يمكن أن نعقدها بين المقاربات الفلسفية للتقنية، التي عرضنا إليها في البداية، والإنترنت؟ يمكن القول بأن مقاربات هيدجر وهابرماس وإيلول تلتقي في اعتبار التقنية جهازاً آلياً

شاملاً. وإذا طبَّقنا ذلك على الإنترنت لَزِمَ القولُ بأنه هو الآخر نظام آلي، أو هو جزء من هذا النظام الآلي الشامل. عرفت التقنية كجهازٍ آلي طَفرَتَين أساسيتين: طفرة رقمية في مجال الإعلام والاتصال، وطفرة في الهندسة الوراثية والجينية.

والسؤال الذي قادنا ووجَّهنا في هذا البحث هو كالآتي: ما منزلة الإنسان من التقنية، وما موقعه من الإنترنت باعتباره آخر مستحدثات التقنية؟ ويمكن تقديم صيغ متعددة لنفس السؤال من قبيل: هل يملك الإنسان زمام التقنية، وهل بوسعه التَّحكُّم في الإنترنت من حيث هو آلة إعلامية جبّارة أم أنه في وضع الانقياد إلى التقنية عموماً، وإلى الإنترنت خصوصاً؟ هل يمثِّل الإنترنت استلاباً للإنسان أم تحرُّراً له؟

يرتبط سؤال التقنية عند هيدجر بسؤال الوجود، لا بإرادة الإنسان، ليس الإنسان هو مَن يتحكَّم بالتقنية لأن التقنية قَدَرُهُ ومصيرُهُ، فهو لا يملك عنها فكاكاً، ولا يستطيع لها رَدّاً، لأن الوجود المعاصر تقني برمّته. أمَّا إذا أَلفَينَا النظرَ إلى الإنترنت من هذا المنظور وجَدنَا أن الوجود كلّه استحال إلى وجود بصري ورقمي، ولم يعد الإنسان نفسه في هذه المعادلة سوى رصيد رقمي: فهو عبارة عن عنوان إلكتروني، ومدوّنة شخصية، وصفحة على الويب Web، والأهم من ذلك استحال الإنسان إلى كائن افتراضي.

أمَّا التقنية فتمثِّل في نظر هابرماس إيديولوجيا المجتمعات المعاصرة، لِكَونها تقنِّع كلّ شيء بقناعها. تنطوي التقنية على مغالطة إيديولوجية، وتتمثَّل في الادِّعَاء بأنَّ لِكُلِّ المشكلات السياسية والعملية في المجتمعات المعاصرة حلولاً تقنية. تكمن إذن إيديولوجية التقنية في طَمسِ المشاكل الحقيقية للإنسان المعاصر وتقديم بدائل تقنية لها، مثل محاولَة حَلِّ مشكلة التواصل الإنساني، لا بإرجاعها إلى ضرورة إرساء حوار حقيقي أصيل وإنما فقط بردِّها إلى طرائق ومنظومات تقنية. أمَّا لَو حاولنا تطبيق مقاربة هابرماس على الإنترنت لَتَوَصَّلنا إلى أن الإنترنت

لا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ في إرساء التواصل إذا لم يكن مشفوعاً بإرادة إنسانية حقيقية في التواصل، فهو لا يعدو أن يكون أداة اتصال (Outil médiatique) وليس بعدُ أداة تواصل (Outil de communication). فمثلما لا يمكن أن توجد سياسة بدون إرادة سياسية ورأي سياسي لا يمكن أن يوجد تواصل بدون إرادة تواصلية. إذا اجتهدنا وطبَّقنا تحليل هابرماس للتقنية على الإنترنت قُلنَا إن الإنسان يوجد في موقع بين إيديولوجية الإنترنت كأداة اتصال والإنترنت كمدخل لإرساء تواصل حقيقي.

لا تختلف مقاربة إيلول للتقنية كثيراً عمّا سبق، فهو الآخر يرى أن التقنية نظام مترابط الأجزاء، يسير وفقَ منطق داخلي، فلا يمكن أن يريد الإنسان إلاَّ ما تجبره عليه التقنية وتسخِّره له، إلى حد يمكن اعتبار الإنسان المعاصر كائناً تقنياً، حيث صارت التقنية طبيعته الثانية (sa seconde nature)، أمَّا لَو سحبنا ذلك على نظام الاتصال ـ والإنترنت في قِمَّة هَرَمِه ـ لتوصَّلنا إلى كَونِ الإنسان المعاصر مُرتهَن لآلات الاتصال المعاصرة بصفة عامة، وللإنترنت بصفة خاصة.

المراجع

Ellul, Jacques. *Le Système technicien*. Paris: Le Cherche Midi, 1977 (Documents et Guides)

Habermas, Jürgen. *La Technique et la science comme «idéologie»*. Paris: Gallimard, 1990. (Tel)

Heidegger, Martin. *Essais et Conférences*. Paris: Gallimard, 1980. (Tel)

Lévy, Pierre. *Qu'est-ce que le Virtuel?*. Paris: La Découverte, 1998. (Poche)

Wolton, Dominique. *Internet et Après?: Une Théories critique des nouveaux médias*. Paris: Flammarion, 1999. (Champs)

_____. *Penser la Communication*. Paris: Flammarion, 1997 (Champs Flammarion Sciences)